إشعاع علماء السودان الغربي في المغرب
أحمد بابا السوداني التنبكتي أنموذجا(1594-1606م)
Radiation of western Sudanese scholars in Morocco
Ahmed Baba Al-Sudani Al-Timbukti as a model(1594-1606)

د.زين العابدين زريوح
جامعة ابن طفيل/المغرب
zinelabidine83@hotmail.com

تاريخ الإرسال: 02-09-2020	تاريخ القبول: 13-12-2020	تاريخ النشر: ديسمبر 2021

ملخص:

تتمحور المقالة البحثية حول مساهمة العلماء الأفارقة من السودان الغربي في تنشيط الحركة العلمية في المغرب، خصوصا بعد ضم الدولة السعدية لهذه المنطقة أواخر القرن 16م، وذلك إثر نقل عدد من العلماء السودانيين خصوصا من آل قيت إلى مراكش، واستقرار آخرين من العلماء والطلبة تلقائيا في مناطق أخرى، حيث أخذ هؤلاء الفقهاء مكانهم ضمن المجالس العلمية والمدارس المغربية، وحازوا إقبالا واسعا من طرف الطلبة المغاربة الذين ازدحموا على دروسهم في مختلف العلوم اللغوية والشرعية، ووضعوا تصانيف في مشارب علمية متعددة كالنحو والفقه والحديث والتصوف وعلم التراجم.

نجد على رأس هؤلاء العلماء السودانيين الذين أثبتوا مكانتهم و أظهروا نبوغهم على الساحة المغربية أحمد بابا السوداني أو التنبكتي(ت1036هـ/1627م) الذي استقر بالمغرب بشكل قسري خلال الفترة ما بين 1594-1606م، حيث تتلمذ على يديه كبار علماء الدولة السعدية وغيرهم من الطلبة المغاربة، وألف أبرز مؤلفاته خلال إقامته بمراكش بما مجموعه حوالي أربعين كتابا ورسالة في مختلف صنوف العلم من فقه وتراجم ونحو وحديث وتصوف وغيره، إذ عمت شهرته كافة بقاع المغرب والغرب الإفريقي وكان ملجأ عدد كبير من العلماء والقضاة والطلبة في طلب العلم والفتوى. مما كان له تأثير كبير على التبادل الثقافي ما بي وإثراء الفكرين المغربي والسوداني.

الكلمات المفتاحية: أحمد بابا - المغرب- السودان الغربي - تنبكتو– الدولة السعدية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

Abstract :

The research article revolves around the contribution of African scientists from Western Sudan to revitalizing the scientific movement in Morocco, especially after the Saadian state annexed this region at the end of the 16th century CE, following the transfer of a number of Sudanese scientists, especially from Al Qait to Marrakesh, and the settlement of other scientists and students automatically in regions Other, where these jurists took their place within the scientific councils and Moroccan schools, and won a wide turnout on the part of Moroccan students who crowded around their lessons in various linguistic and legal sciences, and put books in various scientific fields such as grammar, jurisprudence, hadith, mysticism and biography.

At the head of these Sudanese scholars who proved their status and showed their brilliance on the Moroccan arena is Ahmad Baba al-Sudani or al-Tanbakti (1036 / 1627) who settled in Morocco forcibly during the period between 1594-1606, where senior scholars of the Saadian state and other Moroccan students were taught by him. And he authored his most prominent books during his stay in Marrakech, including a forty books in various types of knowledge, including jurisprudence, translations, grammar, hadith, mysticism, and others, as his fame spread throughout Morocco and West Africa and was a refuge for a large number of scholars, judges and students seeking knowledge and fatwa. Which had a great impact on cultural exchange and enrichment of Moroccan and Sudanese thoughts.

Keywords : Ahmed Baba - Morocco - Western Sudan - Timbuktu - the Saadian state.

مقدمة:

لعبت مساهمة لعب العلماء الأفارقة –خصوصا منهم المنحدرين من السودان الغربي- دورا مهما في تنشيط الحركة العلمية في المغرب، لا سيما بعد ضم الدولة السعدية لهذه المنطقة أواخر القرن 16م، وذلك إثر نقل عدد من العلماء السودانيين للبلاد، وبالتحديد من فقهاء آل قيت الذين نقلوا إلى عاصمة الدولة بمراكش، واستقرار آخرين من العلماء والطلبة بشكل عفوي في مناطق أخرى، حيث أخذ هؤلاء الفقهاء مكانهم في مقاعد التدريس والتلقين العلمي، وكانوا محط إقبال واسع من الطلبة المغاربة في مختلف العلوم، وألفوا عدة كتب في مشارب علمية مختلفة.

ونجد على رأس هؤلاء العلماء السودانيين الذين أثبتوا مكانتهم و أظهروا نبوغهم على الساحة المغربية أحمد بابا السوداني أو التنبكتي(ت1036هـ/1627م) الذي استقر بالمغرب خلال الفترة ما بين 1594-1606م، وتتلمذ على يديه عدد هام من أنجب الطلبة وكبار علماء الدولة، وألف خلال هذه الإقامة أبرز مؤلفاته، وعمت شهرته المغرب وإفريقيا الغربية، مما كان له تأثير كبير على

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التبادل الثقافي ما بين وإثراء الفكرين المغربي والسوداني.

إذا كيف اندمج أحمد بابا السوداني في البيئة المغربية وتفاعل معها علميا وثقافيا؟ وما هو حجم التأثير العلمي الذي أحدثه فيها؟ وما هي المساهمات الممتدة التي خلفها بالبلاد؟

1- بروز أحمد بابا التنبكتي داخل الوسط المغربي انطلاقا من الإطار العلمي الإفريقي:

مهد ضم السودان إلى السلطة المغربية أواخر القرن 16م لنشاط الحركة الثقافية والعلمية المغربية السودانية بشكل كبير، إثر نقل عدد من العلماء السودانيين إلى مراكش رغبة في تحقيق الاستقرار السياسي هناك، كما خرج آخرون تلقائيا نحو منطقة سوس حيث أخذوا مكانهم ضمن المجالس العلمية بمراكش وإيليغ على قدم المساواة مع العلماء المغاربة، وحازوا إقبالا واسعا من طرف الطلبة المغاربة الذين ازدحموا على دروسهم في مختلف العلوم اللغوية والشرعية، وألفوا في مشارب علمية متعددة كالنحو والفقه والحديث والتصوف، لكنهم امتازوا داخل الوسط المغربي أساسا بعلم التراجم، حيث وضعوا مصنفات في تراجم فقهاء المالكية ببلاد المغرب والأندلس والسودان والمشرق منذ القرون الإسلامية الأولى حتى القرن الحادي عشر الهجري/القرن السادس عشر الميلادي[1]، مما ساهم في ترسيخ الفقه المالكي وانتشار كتبه في إفريقيا الغربية[2].

وكان عدد من علماء وطلبة الغرب الإفريقي يدرسون بجامع القرويين ويعودون بمعارفهم إلى السودان، حيث يحظون بمكانة مميزة وتقدير كبير على الصعيدين الرسمي والشعبي[3]. حيث ارتبط هؤلاء وغيرهم من العلماء السودانيين بعلماء المغرب من خلال مجموعة من الإجازات العلمية والنوازل الفقهية[4]. فيما كان قام آخرون بهجرة عكسية تجاه المغرب، وكان لهم دور في إثراء الحياة الثقافية والعلمية بالبلاد.

ونجد على رأس العلماء السودانيين الذين أثبتوا مكانتهم و أظهروا نبوغهم على الساحتين المغربية والسودانية أحمد بابا السوداني أو التنبكتي(ت1036هـ/1627م)، وهو العلامة أحمد بن الحاج أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى بن كدالة، الصنهاجي المسوفي الماسني التكروري التنبكتي السوداني، المالكي، المشهور بـ«بابا» التنبكتي والسوداني، ويكنى بأبي العباس، وقد اشتهر بالتنبكتي نسبة إلى المدينة التي ولد وتربى فيها وترعرع، أما مولده حسب ما دونه والد هو ليلة الأحد حادي والعشرين من ذي الحجة ختام عام ثلاثة وستين وتسعمائة للهجرة (963هـ/1556م) بمدينة تنبكتو[5].

---

[1]- محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج 1، سلسلة التاريخ 2، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة، الرباط، 1977، ص. 71.

[2]- شوقي عطا الله الجمل، "تنبكت وعلاقتها بالمغرب قبل حملة المنصور السعدي وتحت الحكم المغربي"، المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء في بدايات العصر الحديث، تنسيق فاطمة الحراق، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 2، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 1995، ص. 49.

[3]- نفس المرجع، ص. 53.

[4]- محمود ددب التنبكتي، من تراث تمبكتو والساحل الإفريقي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو، الرباط، 2011، ص. 42.

[5]- عبد الرحمن محمد ميكا، "جهود العلماء الأفارقة في خدمة المذهب المالكي أحمد بابا التنبكتي أنموذجا"، مجلة العلماء الأفارقة، السنة1- العدد1، أكتوبر 2019، ص. 197.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهو من الشخصيات العلمية الفقهية التي شاركت بجهد كبير في مختلف ميادين المعرفة الإسلامية، وكان فضلها عظيما في الربط بين مشرق العالم الإسلامي ومغرب ، إذ يعتبر من أهم الأعلام الأفارقة الذين عاشوا في القرن العاشر والحادي عشر الهجريين، والذين قدموا للمذهب المالكي خدمات جليلة[1].

وينتمي أحمد السوداني إلى بني آقيت من أهل تنبكتو من ذوي الوجاهة والشهرة في بلاد السودان برمته على المستويين الديني والدنيوي، بحيث أنتجت هذه الأسرة السودانية العريقة العديد من العلماء والقضاء والأئمة الذين توارثوا رئاسة العلم بالمنطقة لأزيد من 200 سنة قبل ظهور أحمد بابا[2].

وفي ظل هذه الأجواء العلمية المشحونة بالمعرفة والانضباط التي نشأ فيها مكنته من نهل مختلف مشارب العلوم، بحيث أنه منذ بداياته حفظ أمهات الكتب وقرأ النحو على عمه أبي بكر، ثم التفسير والحديث والفقه والأصول واللغة العربية والبيان والتصوف على شيخه العلامة محمد بغيغ الذي لازمه لعشر سنوات، بينما أخذ عن والده المنطق والحديث سماعا، وغيرها من ألوان الأدب التي اشتهرت بين أهل السودان مثل الرسالة ومقامات الحريري، إلى أن أضحى لامعا بين الطلبة بفضل مهارته ونشاطه[3].

إذ ضبط خلال تعلمه مجموعة من أمهات الكتب في عدة تخصصات معرفية أساسية خصوصا في المذهب المالكي كمختصر خليل للفقيه المالكي الكبير خليل بن إسحاق الجندي والمختصر الفرعي لابن الحاجب قراءة بحث وتحقيق وتحرير، وختم الموطأ قراءة وفهما، كما درس نتائج التوضيح في شرح مختصر ابن الحاجب للجندي أيضا، و ألفية العراقي في علوم الحديث، والبخاري ومسلم، ومعيار الونشريسي، وكذا كتب النحو والعروض والتنجيم، وغير من أمهات المؤلفات التي أغنت معرفته[4].

2- ظروف استقدام أحمد بابا التنبكتي إلى المغرب وانفتاحه على المحيط العلمي المحلي:

وقد كانت هذه الشهرة العلمية –فيما بعد- سببا في استقدام الفقيه أحمد بابا السوداني من بين آخرين من علماء أسرته "آل أقيت" التي كان لها رسوخ في العلم، وكانت تحظى بنفوذ واسع وسط عامة مدينة "تنبكتو" وسائر بلاد السودان، بعد مدة وجيزة من السيطرة السعدية على البلاد، حيث كتب المنصور إلى قائده بالسودان محمد بن زرقون بترحيلهم إلى مراكش[5] لتخوفه من تأثيرهم بين السودانيين، خصوصا وأن أهل السودان بدأوا يستشعرون تغيرا في سلوك الإدارة المغربية وخوف

---

[1]- نفس المرجع، ص. 196.

[2]- أحمد الناصري، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق أحمد الناصري، منشورات وزارة الثقافة والإتصال، الرباط، 2001، ج 5، ص. 134.

[3]- أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ج 2، تحقيق محمد مطيع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، الرباط، 2000، ص. 281-282.

[4]- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهراحة، منشورات دار الكتاب، طرابلس(ليبيا)، 2000، ص. 602

[5]- عبد القادر آيت الغازي، العلماء والمخزن السعدي من قيام الدعوة إلى انهيار الدولة، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية 2002-2003، ص. 544.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السلطان السعدي من إشعاع علماء هذه الأسرة وقدرتها على توجيه الأهالي إلى غير ما يرغب فيه بعد بروز بعض العيوب في سياسة قواده وجنوده هناك[1]. لاسيما وأنه كان ما يشير لتزعم أحمد بابا - نظرا لمكانته البارزة بين أهل عشيرته- التيار المنتقد للسلطة السعدية، مما جعله محط أعين رجالها[2].

وانطلاقا من ذلك، فقد حرص المنصور الذهبي على الكتابة إلى قائده بالقبض عليه وتغريبه إلى عاصمة ملكه وجعله على مقربة منه وأمام مراقبته، ضمن مجموعة من علماء أسرته مثل القاضي الفقيه أبو حفص عمر بن محمود الذي ساعد السلطان على عملية غزو السودان والسيطرة عليه، بل وكان يحضه على ذلك، حيث تم الاستحواذ على كمية قيمة من كتبهم من شتى العلوم[3]. لأن المنصور اعتمد في البداية على العلماء وعلى رأسهم قاضي تنبكتو لإحداث اختراق في السودان الغربي لمعرفته بمكانته[4].

فبعد سجنه لمدة سنتين بمراكش(1002-1004هـ/1594-1596م) تم تسريحه رفقه أهله بشرط الإقامة الجبرية في المدينة[5]. وذلك بعد مواجهة علمية جمعته مع المنصور الذهبي أبان فيها عن علو كعبه في الفقه والحديث وقوة حجته الشرعية في دحض كل ما قام به السلطان السعدي ضد عائلته ومتاعه وكتبه، وكذا انتقاد تكبره وبعض سياساته خصوصا تجاه السودان الغربي، إلى درجة لم يجد معها جوابا لأدلته المفحمة، مما ظهر له من رجاحة العقل والعلم[6].

وعلى الرغم مما تذهب إليه بعض الروايات التي تحكي عن معاناة أحمد بابا ورفقائه من العلماء خلال فترتي الترحيل والسجن[7]، فإن هؤلاء -ومنهم أحمد بابا- قد عومل معاملة جيدة ولم يكن مسجونا أو تحت المراقبة، بدليل أنه أُسكن هو وأهله بحي المواسين الذي يضم علية القوم من رجال الدولة وغيرهم، وكان للرياض الذي أُنزل فيه باب على جامع الأشراف ومكتبته، كما سُمح له باستقبال الزوار وألف أبرز مؤلفاته خلال إقامته بمراكش[8]، بحيث ألف حوالي أربعين كتابا ورسالة في مختلف صنوف العلم من فقه وتراجم ونحو وحديث وتصوف وغيره[9]. حيث ساعدته إقامته الجبرية على التأليف والكتابة بشكل ملحوظ[10].

فبعد أن اطمأنت السلطات السعدية إليه، أنهت إقامته الجبرية بشكل جزئي، وطُلب منه ممارسة التدريس بجامع الشرفاء بمراكش، والتي كانت من أفضل المساجد بالمدينة، حيث كان يدرس مختصر خليل وتسهيل ابن مالك وألفية العراقي وتحفة الحكام لابن عاصم وجمع الجوامع للسبكي

---

[1]- أحمد الناصري، الإستقصا، ج 5، مرجع سابق، ص. 134.

[2]- Mahmoud A. Zouber, Ahmed Baba de Tombouctou (1556 – 1627) sa vie et son œuvre, Departement d'Islamologie de l'Université de Paris- Sorbonne, Paris, 1977, p. 24.

[3]- أحمد الناصري، الإستقصا، ج 5، مرجع سابق، ص. 134-135.

[4]- محمد الصغير الإفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق وتقديم عبد اللطيف الشاذلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998، ص. 166.

[5]- أحمد الناصري، الإستقصا، ج 5، مرجع سابق، ص. 135.

[6]- محمد الصغير الإفراني، النزهة، مرجع سابق، ص. 171-172.

[7]- M. A. Zouber, Ahmed Baba de Tombouctou, op.cit., p. 26.

[8]- محمد بنشريفة، "بين أحمد باب وأحمد المنصور"، المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء في بدايات العصر الحديث، تنسيق فاطمة الحراق، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 2، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 1995، ص. 65، 66،67.

[9]- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، مرجع سابق، ص. 18-19.

[10]- محمد القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ج 1، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، سلسلة التراجم رقم 3، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977، ص. 275.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وحكم ابن عطاء الله، والجامع الصغير والمعجزات الكبرى لجلال السيوطي، والصحيحين ومختصريهما والشفا والموطأ، وغيرها من أمهات كتب الفقه والحديث وعلوم أخرى، إلى درجة ازدحم عليه الخلق وأعيان الطلبة ولازموه، وأصبح قبلة للفتوى شفاهية وكتابة، إلى أن تقلد مهمة الفتوى التي لم يكن يبلغها إلا كبار العلماء، فاشتهر بذلك إسمه وعلمه في كافة البلاد المغربية، بل وصل صداه إلى إيالة الجزائر العثمانية[1]. إذ منذ أن تصدر لنشر العلم هرعت الناس إليه بمراكش إلى غاية وفاة السلطان المنصور[2]. حتى أنه كاد لا يسمع إلا بإسمه لدى طلبة بعض المناطق لشهرته العلمية[3].

كما سمحت له مدة إقامته الطويلة بالمغرب من سنة 1002هـ/1594م إلى حين عودته إلى مدينة تنبكتو سنة 1015هـ/1606م والتي استقر بها إلى غاية وفاته بها1036هـ/1627م، من تحقيق تلاقح علمي وثقافي هائل ما بين المجالين بفعل إشعاعه الكبير والتعداد الكبير لطلبته من المغاربة والسودانيين[4].

3- الإشعاع العلمي لأحمد بابا بين علماء وطلبة المغرب وتراثه الفكري الممتد:

لقد عمت شهرته بسرعة كافة بقاع المغرب، بل حتى جميع ربوع الغرب الإفريقي، وكان ملجأ عدد كبير من العلماء والقضاة والطلبة في طلب العلم والفتوى[5].

ونظرا لنبوغه في مجاله وبين أقرانه بين العلماء فقد كان محط اهتمام علية القوم من الأعيان وأبنائهم وغيرهم من الطلبة البارزين، حيث تتلمذ على يديه كبار علماء الدولة السعدية كأحمد المقري(ت1041هـ/1631م)[6] وأحمد بن القاضي(ت1025هـ/1616م)[7] ومحمد القصار(ت1012هـ/1603م)[8] وعبد الرحمان بن محمد التمنارتي (ت1060هـ/1650م)[9].

وقد سجل العلماء المغاربة شهادات في حقه تدل على فضله وعلمه، من قبيل ما قال فيه الأديب محمد بن يعقوب الإيسي(ت1010هـ/1601م):«كان من أوعية العلم...ولم ألق بالمغرب أثبت منه ولا أوثق ولا أحذق ولا أعرف بطرق العلم منه»[10]، بحيث وصفه بأنه: "من أهل الفهم والإدراك التام الحسن، حسن التصريف كامل الحظ من العلوم فقها وحديثا وعربية وأصولا وتاريخا مليح الاهتداء لمقاصد الناس ساهرا على التقييد والمطالعة مطبوعا على التأليف"[11]، ووصفه أيضا العباس

---

[1]- أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج، ج 2، ص. 284-285

[2]- محمد الصغير الإفراني، النزهة، مرجع سابق، ص. 172.

[3]- العباس السملالي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، مراجعة عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط 3، 1993، ص. 305.

[4]- محمود كعت التنبكتي، تاريخ الفتاش، تحقيق آدم بمبا، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق، 2014، ص. 290.

[5]- عثمان برايما باري، جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، دار الأمين، القاهرة، 2000، ص. 27.

[6] - M. A. Zouber, Ahmed Baba de Tombouctou, op.cit., p. 57.

[7] - Ibid, p. 63.

[8] - Ibid, p. 68.

[9] - Ibid, p. 70.

[10]- عبد الرحمان التمنارتي، الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، تحقيق اليزيد الراضي وتقديم محمد المنوني، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007، ص. 134.

[11]- محمد القادري، النشر، مرجع سابق، ص. 272.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السملالي صاحب الإعلام بأنه "كان...دؤوبا على نشر العلم معتنيا بالمطالعة حريصا على التآليف"[1].

كما يذكر تلميذه أحمد المقري وهو أحد كبار علماء العصر السعدي في ترجمته لأحمد بابا السوداني: "الشيخ المؤلف الكبير المصنف العلم الطائر الصيت"، حيث أجازه في عدة مؤلفات وأعاره عددا من الكتب من مكتبته الخاصة، إذ يشير في روضة الآس إلى نص الإجازة التي منحه إياه كتابة[2]. ويذكر أيضا في مكارمه العلمية أنه له :"يد طولا في نوازل الفقه والتاريخ لا يجارى في ذلك، وكذا في علوم الحديث، مع المشاركة التامة في غيره"[3].

ويذهب السعدي صاحب كتاب تاريخ السودان في وصف السيرة العلمية لأحمد بابا وشهرته في المغرب، إلى القول بأنه: "الفقيه العالم العلامة فريد دهره ووحيد عصره البارع في كل فن من فنون العلم...فجدّ واجتهد في بداية أمره بخدمة العلم حتى برع جميع معاصريه وفاق عليهم جدا، ولا يناظر في العلم إلا أشياخه وشهدوا بالعلم، وفي الغرب اشتهر أمره وانتشر ذكره وسلم له علماء الأمصار في الفتوى، وكان وقافا عندك الحق ولو كان من أدنى الناس، ولا يداهن فيه ولو للأمراء والسلاطين"[4].

وقال عنه أيضا تلميذه وصاحبه الحاج أحمد التواتي أنه كان: "عالم الدنيا ومعلمها، حامل لواء الأحاديث ومفهمها، رافع رواية مذهب الإمام مالك ومقدمها، العالم العلامة المقبول، الفاضل، الفهامة"[5].

ومن بين الكتب التي صنف معظمها خلال إقامته بالمغرب، والتي ناهزت الأربعين مؤلفا: مختصر خليل من أول الزكاة إلى أثناء النكاح، تنبيه الواقف، سماء النكت الوفية بشرح الألفية، النكت الزكية، نيل الأمل في تفضيل النية على العمل، غاية الأمل في تفضيل النية على العمل، غاية الإجادة في مساواة الفاعل للمبتدإ في شرط الإفادة، النكت المستجادة في مساواتهما في شرط الإفادة، التحديث والتأنيس في الاحتجاج بابن إدريس، وجلب النعمة ودفع النقمة بمجانبة الظلمة أولي الظلمة، شرح الصغرى للسنوسي، مختصر ترجمة السنوسي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، والمطلب والمأرب في أعظم أسماء الرب، ترتيب معيار الونشريسي، منن الرب الجليل في مهمات تحرير خليل، وفوائد النكاح على مختصر كتاب الوشاح للسيوطي، وغيرها من الكراريس والمسائل الفقهية[6].

فعلى الرغم من صعوبة فراق بلده وما لاقاه في البداية من محن، إلا أنه شعر بنوع من الارتياح من خلال ما حققه من تعويض علمي ومكانة فقهية بارزة في المغرب، وما ناله من إشعاع إنطلاقا من الديار المغربية، وهو ما يشير إليه بقوله: "تفضل من له الفضل وأحسن إلي من له الطول سبحانه بوصولي إلى منبع العلم في الديار المغربية"، حيث توفرت له الأجواء المناسبة لممارسة التدريس والفتوى والتأليف، ومباشرة الطلبة، وتبادل اللقاءات والإجازات مع العلماء، فتردد على

---

[1]- العباس السملالي، الإعلام، مرجع سابق، ص. 305.

[2]- أحمد المقري، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، المطبعة الملكية، الرباط، ط 2، 1993، ص. 304-305.

[3]- نفس المرجع، ص. 314.

[4]- عبد الرحمان السعدي، تاريخ السودان، تحقيق أوكتاف هوداس، منشورات المدرسة الباريسية لتدريس الألسنة الشرقية، باريس، 1981، ص. 35.

[5]- عبد الرحمن محمد ميكا، "جهود العلماء الأفارقة"، مرجع سابق، ص. 202.

[6]- أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج، ج 2، مرجع سابق، ص. 282-283.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفقهاء وترددوا عليه معلما ومجيزا، فأفاد واستفاد، وألف عشرات الكتب التي ما زالت مخطوطة في عدة خزائن مغربية، فقد استفاد المغرب من علمه الغزير وكتاباته، بحيث لا تزال البلاد حضنا لجزء مهم من تراثه الكبير الذي هو في الواقع تعبير عن مدى عمق الارتباط الثقافي الإسلامي ما بين المغرب والبلاد الإفريقية من خلال هذه الشخصية العلمية البارزة[1].

ويشير محمد القادري إلى مكانته العلمية ودوره في خدمة العلوم الشرعية وغيرها من المعارف في المغرب واستفادة أهل البلاد وطلبتها وعلمائها من فقهه بقوله: "ونفع الله به هذا القطر المغربي وحمل منه علم غزير، واستفيد منه من التحقيق والتحرير، وقد اشتهر فيه اشتهار أهله، وتحققت فيه مكانة قدره وفضله، مع ما أكرمه الله به من مضاعفة الأجور، وعلو الدرجات بمشاق الأمور بسبب ما لحقه من الامتحان"[2].

ولعل تأثيره البالغ بين صفوف الطلبة المغاربة وتقديرهم له ولمكانته العلمية ما جعلهم يكونون في مقدمة مشيعيه حين همّ بالعودة إلى تنبكتو عقب وفاة السلطان أحمد المنصور وحصوله على إذن إبنه زيدان حاكم مملكة مراكش، حيث كان أعيان الطلبة في وداعه ولم يرغبوا في مفارقته ومفارقة مجالسه، إلى درجة أن بعضهم أقدم على التماس عودته للمغرب مرة أخرى، غير أن وحشته لأهل بلده وفقده لتنبكتو جعله يعقد العزم بشكل مطلق على عدم مغادرة موطنه، بسبب حبه الكبير لمسقط رأسه[3].

وإلى جانب هذا الثناء الذي كان بارزا في أقوال وشهادات العلماء في حقه، كان هناك مظهر آخر يبرز مكانته وقيمة آثاره العلمية الممتدة في المغرب، ويتجلى في اعتماد الذين جاءوا من بعده على كتبه، واستشهادهم بأقواله المقتبسة من ثنايا مختلف مؤلفاته، فقد عُرف علماء المغرب بالنقل عنه، ولا سيما علماء منطقة سوس الذين اشتهروا بذلك كثيرا، بحيث كان التأثير واضحا بجلاء في فتاوى علماء "جزولة" في أقصى الأطلس الصغير، حيث تظهر بصمة العلامة السوداني هناك بشكل جلي[4].

4- الإسهامات العلمية والفكرية لأحمد بابا خلال إقامته بالديار المغربية

كان لأحمد بابا السوداني إسهامات بالغة في عدد من المجالات الفقهية والفكرية التي كانت حيوية وآنية بالنسبة للوضع المغربي آنذاك.

وفي مقدمة ذلك خدماته الجليلة للمذهب المالكي الذي ارتبط أساسا بالبلاد المغربية وانتشر منها إلى باقي الغربي الإفريقي، حيث كانت لقضايا الفقه المالكي أهمية بالغة بالنسبة للمغاربة، مما جعلهم يلتفون حول أحمد بابا للنهل من معرفته بهذا المذهب وطلب الفتوى في المشاكل والأمور المستحدثة التي استعصت على غيره، إذ يعتبر أحمد بابا من أبرز رواد الفقه المالكي في القرن العاشر الهجري بالغرب الإسلامي، لما بذله من جهود في ترسيخ هذا الفقه في المجتمع، سواء في المغرب أو في

[1]- عبد الرحمن محمد ميكا، "جهود العلماء الأفارقة"، مرجع سابق، ص. 200-201.
[2]- محمد القادري، النشر، مرجع سابق، ص. 275.
[3]- محمد الصغير الإفراني، النزهة، مرجع سابق، ص. 172.
[4]- عبد الرحمن محمد ميكا، "جهود العلماء الأفارقة"، مرجع سابق، ص. 203.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السودان الغربي. وتتجلى جهوده في هذا المضمار من خلال إنتاجاته الفكرية من مؤلفات وفتاوي في إطار الفقه المالكي الذي ظل يدافع عنه بقلمه ولسانه إلى أن فارق الحياة، الأمر الذي خلد ذكره في سجل تاريخ علماء الفقه المالكي في الغرب الإسلامي عامة وفي المغرب والسودان الغربي خاصة. فالباحث المتمعن لما تركه أحمد بابا من آثار يجد أن جهوده تتجلى أساسا في مؤلفاته وفتاويه التي عالج بها القضايا التي كانت تروج في عصره، ليحل مشاكل مجتمعه، ويصحح بعض المفاهيم الفاسدة الرائجة في زمنه على ضوء المذهب المالكي، إذ تركزت جهوده في مصنفاته، على تتميم ما رآه ناقصا من أعمال سابقيه، وشرح ما رآه غامضا من مؤلفاتهم، واختصار ما ظهر له طويلا، وجمع ما يبدو له متفرقا ليسهل استيعابه للدارسين، وحل بعض القضايا الرائجة في عصره[1].

كما كانت له مساهمة مهمة في النقاش الدائر حول استعباد الأفارقة من أهل السودان من المسلمين، حيث كان في المغرب -وغيرها من مناطق العالم الإسلامي- يتم في عدة حالات استرقاق هؤلاء لسواد بشرتهم وانتمائهم لبلد السودان رغم ديانتهم الإسلامية، وهو ما أثار حفيظة أحمد بابا السوداني إلى جاني عدد من العلماء المغاربة، حيث أفتى بعدم جواز تمليك المسلم أو الرقيق المجلوب من البلاد المعروفة بالإسلام، على أساس أن سبب الرق هو الكفر وليس السواد، كما أفتى بضرورة أخذ ادعاء العبيد الحرية بعين الاعتبار من قبل المشتري الذي عليه إثبات العكس، وحث على المعاملة الحسنة للمماليك والاجتهاد في تحريرهم وفق تعاليم الإسلام، وأكد على أن الأصل في الإنسان هو الحرية[2].

وكان كذلك جزءا من النقاش الفقهي الدائر حول شرعية ضم المغرب للسودان الغربي، في وقت اعتبرته الدولة السعدية امتدادا طبيعيا لنفوذها السياسي نظرا للروابط التاريخية الممتدة بين المجالين، والتي تعود إلى عهد المرابطين[3]. بحيث نزع المنصور الشرعية عن ملك السودان أسكيا إسحاق الثاني وأجاز لنفسه كأمير للمؤمنين السيطرة على السودان بمباركة من علمائه[4]. إلا أن أحمد بابا السوداني كان له -على ما يبدو- موقف معارض، وذلك من خلال رفضه التعامل مع السلطة السعدية أو تولي أية مناصب ضمن دواليبها، تجنبا للاعتراف بها أو بشرعية سيطرتها على السودان، بحيث أحجم عن تولي مناصب قضائية وغيرها خلال إقامته الجبرية بمراكش، وذلك رغم شهرته العلمية الواسعة وقيامه بالفتوى خارج الإطار الرسمي لمن طلبها، وذلك بدافع يعود ربما لتجنب الاعتراف بالسلطة السعدية وشرعية سيطرتها على السودان[5]. في وقت وجد المنصور الذهبي بعض الصعوبة في الحصول على بيعة أهل السودان الغربي بعد السيطرة عليه، لا سيما بعد بعض الممارسات المشينة التي نسبت لعدد من رجاله[6]، فإن الأمر لم يستتب لجيشه إلا بعد إقصاء الشرفاء وترحيل علماء أسرة "قيت" إلى مراكش ومحاولة إلزامهم بمبايعته من أجل ضمان بيعة أهل البلاد، وهو ما تبين في كلام

---

[1]- نفس المرجع، ص. 205.

[2]- أحمد بابا السوداني، معراج الصعود: أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق، تحقيق وترجمة فاطمة الحراق وجون هانويك، سلسلة نصوص ووثائق 7، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 2000، ص 22.

[3]- الحسين عماري، "المخزن المغربي والتجارة الصحراوية بين القرن 16 و18م"، مجلة أمل، العدد 30، السنة العاشرة، 2004، ص. 70.

[4]- محمد الصغير الإفراني، النزهة، مرجع سابق، ص. 172.

[5] - M. A. Zouber, Ahmed Baba de Tombouctou, op. cit. , p. 30-31.

[6]- عبد القادر آيت الغازي، العلماء والمخزن السعدي، مرجع سابق، ص. 545-546.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المنصور الذي وجهه لكبير علماء هذه الأسرة –أحمد بابا السوداني- حين استقبله بقصره: «أنتم في بلادكم من أعيانها فإن أذعنتم أذعن غيركم»[1]. بحيث اضطر السعديون لضمان ولاء أهل السودان إلى الإبقاء –شكليا- على الآساكي في الحكم شريطة الاعتراف ببيعة المنصور، الذي كان يرى في نفسه الخليفة الشرعي والوحيد لجميع المسلمين، وأن السودان ما هو إلا إحدى عمالات دولته[2]. مع العلم أن عدد من الأعيان والعلماء السودانيين كان لهم رأي آخر موال للدولة السعدية الذين اعتبروا أن حكمها للسودان الغربي كان له عدة إيجابيات وساندوا حملتها، حيث كان منهم أمراء انتموا لأسرة الأساكي[3]، وعلماء سودانيون مثل محمود كعت التنبكتي(1548-1593م)[4]، وعبد الرحمان السعدي(1596-1655م) ب"الحملة المنصورة" التي جاءت للقضاء على استشراء الفساد والظلم والفسق[5]، إلى جانب ترحيب التجار وعموم الطبقة المثقفة السودانية[6]. بحيث لا يعدو موقف أحمد بابا المنتقد للدولة السعدية إلا تعبيرا عن حالة السخط تجاه المحنة التي تعرض لها بدايات الحملة العسكرية المغربية، ووقوفه على بعض السلوكيات غير المقبولة التي رافقتها.

1- أحمد الناصري، الإستقصا، ج 5، مرجع سابق، ص. 135.
2- شوقي عطا الله، "تنبكت وعلاقتها بالمغرب"، مرجع سابق، ص. 54.
3- إدوارد ويليام بوفيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ترجمة الهادي أو لقمة ومحمد عزيز، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط2، 1988، ص. 227.
4- محمود كعت التنبكتي، تاريخ الفتاش، مرجع سابق، ص. 267.
5- عبد الرحمان السعدي، تاريخ السودان، مرجع سابق، ص. 143-144.
6- إدوارد ويليام بوفيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، مرجع سابق، ص. 292.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خاتمة:

كان أحمد بابا التنبكتي السوداني من أبرز علماء وفقهاء المذهب المالكي الذين أنجبتهم بيئة الغرب الإفريقي والمغرب معا، إذ سخر حياته لخدمة العلم والعلماء والطلبة، وأفنى جزءا كبيرا من جهده العلمي في الوسط المغربي الذي منحه كل ما في جعبته، في المقابل فقد وفرت له الديار المغربية وأهلها المناخ الملائم للاجتهاد في التدريس والفتوى والكتابة وغيرها. وأكبر دليل على ذلك عدد المؤلفات التي وضعها والإقبال الكبير الذي لقيه من الطلبة والعلماء خلال إقامته بمراكش.

فقد خلف وراءه بالديار المغربية تراثا هاما من المؤلفات العلمية والفتاوي، بحيث لا زال هذا التراث غير مستنفذ بالتحقيق والمراجعة والنشر، نظرا للكم الهائل الذي أنجزه هذا العالم من المصنفات المتنوعة والت لازالت محفوظة في الخزانات المغربية. إلى جانب الغنى الذي أفاد به الفقه المالكي في المغرب والغرب الإفريقي ككل. ولذلك كان ولا يزال إشعاعه حاضرا بقوة خصوصا على المستويين الفقهي والتاريخي كعلم من أعلام الغرب الإسلامي برمته.

فهذا التراث كان ولا يزال معبرا عن عمق الصلات الثقافية بين مكونات الغرب الإسلامي، وكذا عمق العلاقات الدينية والروابط العلمية الممتدة بين المغرب والسودان الغربي، من خلال التركة الوازنة لهذه الشخصية المتميزة التي جمعت من خلال معرفتها الواسعة مخزونا وفيرا من العلوم المشتركة للجغرافيتين وشكلت نقطة تقاطع بينهما.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com